

المنهج الاجتماعي في النقد الأدبي العربي الحديث الرواية الجزائرية أنموذجا

الدكتور عبد الله أبو هيف*

(تاريخ الإيداع 19 / 11 / 2008. قبل للنشر في 2 / 8 / 2009)

□ ملخص □

تناول البحث بعد التمهيد التأسيسي النظري للنقد الاجتماعي من غلبة الاتجاه الإيديولوجي لفترة طويلة من الزمن لارتباط الاتجاه الاجتماعي بالنقد الماركسي باسم اجتماعية الأدب وألوية نقد موضوعاته ومضامينه وقضاياها العامة، إلى الاتجاه البنوي التكويني، لارتباط الاتجاه الاجتماعي بالبنوية وتأويلاتها ورؤى العالم فيها داخل البنية النصية وتعالقاته مع الخصائص الثقافية.

عرّف البحث في القسم الثاني أبرز الجهود في تطبيق النقد الاجتماعي الروائي المطبوع في مؤلفات نقدية، وتوزع التعريف إلى أبرز الكتب النقدية وجماليات الرواية التي مارست النقد حول الرواية المغاربية بعامة والرواية الجزائرية، مثل كتاب «الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع» (1993) لعبد الفتاح عثمان (مصر)، و«الرواية المغاربية - الجدلية التاريخية والواقع المعيش، دراسة في بنية المضمون» (2002) لإبراهيم عباس (الجزائر)، و«تجربة الطاهر وطار الروائية بين الإيديولوجيا وجماليات الرواية» (2004) للكاتبة لينة عوض (الأردن). ختم البحث باستنتاجات عن مضامين النقد الاجتماعي الروائي.

الكلمات المفتاحية: الاتجاه الإيديولوجي، البنوي التكويني، تطبيقات نقدية.

*أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية.

The Social Framework in Modern Arab Criticism: A Case Study of the Algerian Novel

Dr. Abdullah Abu Heif*

(Received 19 / 11 / 2008. Accepted 2 / 8 / 2009)

□ ABSTRACT □

In the first part, this research deals with the theoretical framework of social criticism starting with the domination of the ideological aspect which has prevailed for a long period of time. This is the result of the connection of the social approach to Marxist criticism under the name of the socialism of literature, and the priority of criticizing its subjects, contents, and general external issues. Then, we turn to the structural framework to highlight the connection of the social trend to structuralism and its interpretations and visions of the world reflected through its textual, structural, and interaction with cultural criticism. In the second part, this study introduces the best efforts, printed in critical texts, of applying social criticism to fiction. This introduction is divided into two parts: the first is about the best critical texts which used criticism in the novel of Arab West-African countries, in general, and the Algerian novel, in particular. For example, *The Arab Algerian Novel and Vision of Reality* (1993) by Abd al-Fattah Othman (Egypt), and *The Novel in Arab West-African countries: History and Reality: A study in the structural content* (2002) by Ibrahim Abbas (Algeria), in addition to *Al-Taher Wattar's Experience: between Ideology and the Aesthetics of the Novel* (2004) by Lina Awad (Jordan). This research concludes with general remarks about the application of social criticism to fiction.

Keywords: Ideological direction, structural formation, critical applications

* Associate Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدمة:

التبس المنهج الاجتماعي في النقد منذ بداية استعماله بعد الحرب العالمية الثانية مع مفاهيم وممارسات نقدية أخرى، فنظر إليه على أنه التعبير النقدي عن مفهومات الواقعية الاشتراكية الأيديولوجية، وقد سادت هذه النظرة حتى ثمانينيات القرن العشرين، ولعل هذه المفارقة شديدة الدلالة، فقد قدم جدانوف تقريره الشهير إلى مؤتمر اتحاد الكتاب السوفييت عام 1948 بعنوان «إن الأدب كان مسؤولاً»، عرّبه في حينه رثيف خوري (لبنان) ضمن المنهج الاجتماعي مع الأيديولوجي، ثم أصدر من وحي هذا التقرير كتابه «الأدب المسؤول» (1968)، واتبعه جلال فاروق الشريف (سورية) بعد عقد من الزمن بكتابه الذي يحمل عنوان تقرير جدانوف نفسه «إن الأدب كان مسؤولاً» (1978).

ثمة أمر آخر هو حداثة المصطلح الذي يتداخل مع مفاهيم وممارسات نقدية سابقة عليه، والمعول فيها هو نقطة تنازع قراءة النص ما بين الاكتفاء بشبكة علاقاته الشكلية والدلالية، ما بين امتداد النص إلى شبكة العلاقات التاريخية والاجتماعية، وصولاً إلى «قراءة ما هو تاريخي واجتماعي وأيديولوجي وثقافي ومعرفي في هذا التمثل الغريب الذي هو النص»⁽¹⁾، وهكذا، استوعب النقد الاجتماعي مزيجاً غير متجانس من مجالات دراسة الظاهرة الأدبية كالتلقي والنسق الثقافي والتداولية أو الاستهلاكية وسوى ذلك.

انفتح النقد الأدبي العربي الجديد على المنهج الاجتماعي متأثراً في سبعينيات القرن العشرين بالمؤثرات الماركسية المتطورة: روجيه غارودي، أرنت فيشر، جورج لوكاتش، ولا سيما الأخير، ومتأثراً في العقدين الأخيرين بالنزوعات الشكلانية واللغوية والبنوية المشبعة بالماركسية أيضاً كما في المبدأ الحوارية عند ميخائيل باختين، وفي البنوية التكوينية عند لوسيان غولدمان.

تتلاقح اليوم في المشهد النقدي العربي الجديد مؤثرات أخرى للنقد الاجتماعي، مثل النقد الثقافي والمعرفي، ونظرية التلقي، ولا يخفى بعد هذه الإلماحة التمهيديّة أن النقد الاجتماعي هو مداهمة النص بسلطة الخطاب التاريخي ومواءمة فضاء النص لاشتراطاته.

أهمية البحث وأهدافه:

عرضت بحوث التأطير النظري للنقد الاجتماعي، والاتجاه الأيديولوجي، والاتجاه البنوي التكويني، وأبرز الجهود في تطبيق النقد الاجتماعي ضمن نقاد عرب يعنون بالتعريب والتأليف باللغة العربية وخصائصها الثقافية. وبيّنت في ثنايا العرض مساهمتها الثرية غالباً في تعضيد المنهج الاجتماعي في النقد مطبقاً على نصوص عربية تراثية ومعاصرة. ولعل هذا الملتقى من أغنى الملتقيات الأدبية تطوراً لممارسة المنهج الاجتماعي في النقد الأدبي العربي الحديث. وأورد الملاحظات النقدية العامة:

أ- ما يزال المنهج الاجتماعي متداخلاً مع مناهج نقدية أخرى، إلا قليلاً، حيث يؤثر باحثون ونقاد أن ينظروا في المضمون على حدة، وإلى الشكل على حدة أيضاً.

ب- مازج باحثون ونقاد بين بعض مكونات المنهج الاجتماعي ومعطيات مناهج نقدية أخرى، كالعلامي

(1) مجموعة من الكتاب: «مدخل إلى مناهج النقد الأدبي» (ترجمة رضوان ظاظا): سلسلة «عالم المعرفة»، الكويت 1995،

(السيمبائي) أو الأسلوبية أو التأويلية أو النبوية.

جـ- اعتنى باحثون ونقاد قليلون بالاتجاه النصي في النقد الاجتماعي الذي يعتمد على النقد البنوي التكويني بالدرجة الأولى.

منهجية البحث:

أما تأصيل هذه المنهجية الاجتماعية في النقد الأدبي العربي الحديث فيثير إشكاليات متعددة حول الهوية وسيرورة التقاليد الأدبية والنقدية، إذ لا تكشف مثل هذه الممارسات النقدية عن الاجتهاد الذاتي، فعالية خاصة وعمامة، في الانبثاق من التقليد الأدبي والنقدي القومي أو تطوير الخصوصيات الثقافية في الوعي النقدي. ولعل قيمة هذه المنهجيات، مما يندرج في النقد الاجتماعي، كإمارة مقدرتها على تحليل النصوص الأدبية بذاتها، وليست تغليب المرجعيات الخارجية في استقطار رؤية العالم أو الوعي الممكن أو الشبكة الدلالية من هذه النصوص.

تأكد الباحثون والنقاد في النقد الاجتماعي النصي، التي تنطلق من البنية النصية للوصول إلى البنية المجتمعية التي أنتجتها، من منظورات بنية خطاب الإيديولوجيا، لأن الأدب لا يتعامل مع قواعد نحوية محايدة، بل مع مصالح اجتماعية محولة إلى نصوص مرتكزة على المستوى الخطابي.

واعتمد النقد على اجتماعية النص الروائي، الذي ينطلق من الظاهرة المدرجة في النص، ويستعين بالنظريات التي تسعفه في تحديد انتماها السوسيولساني كذلك، لأن طبيعة النص الأدبي الروائي التخيلية، تجعله لا يخضع بصورة آلية وتلقائية لبيئته الاجتماعية.

بدا واضحا رسخ منهجية النقد الاجتماعي ومعرفيته بتعالقات البنيوية التكوينية مع الاتجاه النصي النقدي القائم على تقانات الأسلوب ومستوياته اللغوية والدلالية والعلامية (السيمبائية) لإجراء عمليات الوعي برؤاه الفكرية في الرواية.

التأطير النظري للنقد الاجتماعي:

ارتهن النقد الاجتماعي غالباً بالكشف عن الموضوعات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية عند تحليل المضامين، وأضفي المحتوى الفكري على التركيب النصي من خارجه حيناً ومن داخله حيناً آخر، حسب منظورات الباحثين والنقاد أو الدارسين بعامة. وحُصر هذا النقد بالمعتقدات المتحكمة بتحليل النصوص أو وصفها، وصارت إلى أحكام قيمة قد لا تتفق مع مبناه أو معناه من خلال إدغامه بالأدلجة والتبشير العقائدي، وتسيّد الاتجاه الإيديولوجي عليه حتى وقت قريب لدى المتغيرات الدولية العاصفة والمتسارعة خلال ثمانينيات القرن العشرين، ثم تصدّر الاتجاه البنوي التكويني هذا النقد لدى تمازج المبنى والمعنى في تحليل النصوص. وأوضح جوانب من الاتجاهين الإيديولوجي والبنوي التكويني في ترسيخ النقد الاجتماعي، بالإضافة إلى الاتجاه الوصفي التحليلي الذي يمزج محتوى النص من داخله بالدرجة الأولى:

الاتجاه الإيديولوجي:

ارتبط الاتجاه الإيديولوجي بالنقد الماركسي Marxist Criticism على أنه تطويع الأدب وفق نظرية ماركس وإنجلز في الاقتصاد السياسي والتفسير المادي للتاريخ الذي يقوم على بنيتين تحتية عن إنتاج المجتمع

وفوقية عن عمليات إعادة إنتاجه أو تسيير إنتاجه وفق بنى قانونية وسياسية وفكرية وأخلاقية.. الخ ناجزة للوعي الاجتماعي. وصار الاتجاه إلى مبادئ حزبية عند الشيوعيين والماركسيين اللينيين أو الماركسيين الآخرين في هذا النظام الاشتراكي أو الثوري أو ذلك. ونظر لهذا الاتجاه تروتسكي في كتابه «الأدب والثورة» (1924)، ثم ترسخ هذا الاتجاه في مذهب الواقعية الاشتراكية في ثلاثينيات القرن العشرين بنظرات مكسيم غوركي وسواه، وتطور الاتجاه الإيديولوجي مع اشتغال جورج لوكاتش في مؤلفاته النقدية الكثيرة التي أطرت مذهب الواقعية ونمذجته بحسب الأطروحات الماركسية⁽²⁾. وحاول بعض الماركسيين تطوير الاتجاه الإيديولوجي أمثال بيرتولد بريشت وممثلي مدرسة فرانكفورت (تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر وهربرت ماركوز) وروجه غارودي الذين دعوا إلى واقعات جديدة، بلا ضفاف، منفتحة على التحديث. وجاهد مفكرون وفلاسفة فرنسيون من ورثة البنيوية أن يخففوا من وطأة الأدلجة قليلاً أمثال الكتاب ألتوسير وغولدمان.. الخ مزوجة للبنيوية والماركسية في الكشف عن الوعي الاجتماعي. ونشط محررو الاتجاه الإيديولوجي من ماركسيته المجردة، أو إطار تحزبه عند النقاد الماركسيين الأمريكيين أمثال فريدريك جيمسون الذي يراعي النظر الماركسي في المجتمع الرأسمالي الأمريكي، مما جعله يعلن أن القراءة الماركسية «أفق مطلق لكل قراءة وكل تفسير»⁽³⁾

لقد انتشر الاتجاه الماركسي كثيراً في النقد الحديث باسم اجتماعية الأدب إزاء قضايا موقع الكاتب والكتاب، وانتماء الكاتب الاجتماعي، وحقوقه وتمويل الكتاب، وقطاع القراءة وجمهور الأدب، والأهم سياسة الكاتب والكتاب واقتصادياته، ونشأت مراكز لاجتماعيات الأدب تحدد خطه وبرامجه في دول أوروبية كثيرة مثل «مركز اجتماعيات الوقائع الأدبية في بوردو» (1923)، وتناول عمل هذا الكاتب، على سبيل المثال، منهجية التاريخ والنقد الأدبيين فيما يخص العلاقة بين الكاتب والجمهور ومشكلة الأجيال وجماعات الكتاب والشروط الاقتصادية للواقع الأدبي، ومسائل توزيع الكتاب وعلم النفس الاجتماعي للقارئ والرواية الشعبية في القرن التاسع عشر وسلوك الشباب المجدد أمام المطالعة والمطالعة في مكتبات المؤسسة، والمصطلحات الأدبية⁽⁴⁾

سعى دعاة الاتجاه الاجتماعي إلى شمولية الثقافة الشعبية، بينما يتعسر فهم هذه الثقافة كلياً بمعزل عن الأخذ باتجاهات أخرى مثل التمثيل الثقافي والأسطورة والعلامية (السيمائية) لوعي التمثيل الاجتماعي (الأمثال والحكمة.. الخ) والترفيه الشعبي (النوادر والأحاجي.. الخ) ودلالات التمثيل الاجتماعي (رموز البركة والتعاويد والرفقي والمعتقدات والعادات والتقاليد والطقوس والأعراف.. الخ)، وينفتح الاتجاه الاجتماعي على البعد الإبلاغي في درس الشعارات والإعلام الجداري الذي لا تنطبق عليه مفاهيم الصحافة، أما الإعلام فيفيد إبلاغية المحتوى في كتابة أو ملصق أو رسم.. الخ، ووسع الباحث خليل أحمد خليل بوصفه ناقدا اجتماعيا، معاني الشعارات إلى المجالات التالية:

(2) كتب جورج لوكاتش: «نظرية الرواية» (1920) و«التاريخ والوعي الطبقي» (1923)، و«الرواية التاريخية» (1925)، و«دراسات في الواقعية الأوروبية» (1948)

(3) ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط3، 2002، ص 323 - 327

(4) روبرت اسكارليت: سوسيولوجيا الأدب (ترجمة أمال انطوان عرموني)، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 1983،

- 1- النداء الخاص بجماعة، نداء التعارف والتنادي في الحروب والصراعات.
- 2- العلامة التي تميز رافعها في السفر أو في المجتمع أو في السياسة.
- 3- العلامة الفارقة في التحرك أو سرّ الليل.
- 4- الكتابة على الجدران.
- 5 - الشعيرة، العلامة، المعلم، المنسك (الطقس الخاص)، مثل شعيرة الحج⁽⁵⁾

نظر الباحثون كذلك دعاء الاتجاه الاجتماعي لشموله فهم الإبداع الفني برمته، وبأنواعه وأشكاله شأن ربط الفن بالحياة العملية ووعي طبيعة الموهبة الفنية، وفهم الطبيعة الانفعالية والعقلانية للإبداع الفني، وتحديد تأملات الفن، وتأطير علاقات الشخصية والموهبة والانضباط الذاتي، والإقرار بأن الشكل والمضمون في العمل الفني انعكاس للحياة، ووضع نظرية الانعكاس والفنون، والعملية الإبداعية والنمذجة، وارتهان النشاط العملي بالنشاط الثقافي، وطبيعة الأسلوب والتحليل الأسلوبي.

- ولعلنا نختار شاهداً ذلك من بحث يو. ب. بوريف طبيعة الأسلوب والتحليل الأسلوبي وفق الاتجاه الاجتماعي عن تنامي منسوب السمات الأسلوبية المشتركة:
- 1- الوحدة الأسلوبية، التوليدية الإقليمية.
 - 2- الأسلوب القومي.
 - 3- الخواص الأسلوبية المشتركة لأمة في مرحلة معينة.
 - 4- أسلوب اتجاه ما أو مدرسة أو حركة.
 - 5- الأسلوب الفردي للفنان.
 - 6- الأسلوب الفردي للفنان خلال فترة إبداعية معينة.
 - 7- أسلوب عمل فني.
 - 8- أسلوب جزء من العمل (في كلية فنون).
 - 9- أسلوب عصر ما الذي يترك بصمات على هذه المستويات جميعها⁽⁶⁾

رأى غالي شكري أن المنهج الاجتماعي هو السائد في حركة النقد الأدبي العربي الحديث عند تأليف كتابه «سوسيولوجيا النقد العربي الحديث» (1981)، وقدم فيه الخلفية الاجتماعية لقصة هذا النقد في مجملها وخطها العام، لاعتقاده أن علم الاجتماع الثقافي بين المناهج المعاصرة هو أقدرها على التكيف مع خصوصية الحركة النقدية العربية، واتباع أسلوباً في التأليف مؤداه افتراض مجموعة من الأسئلة الواقعية حول حال النقد الأدبي العربي الحديث من جهة، والإجابة الاجتماعية عن السؤال الثقافي في صيغة الرواية أو حكاية قصة هذا النقد لاستشفاف التفاصيل الدقيقة والعينات الصغيرة والحوادث البسيطة التي تصوغ حركة النقد والقضايا الكبيرة والأفكار العامة من جهة ثانية، والسعي لتخفيف لغة النقد في كتابه من الأعباء الأكاديمية المعتادة، والتي لا تتناقض مع العلم من جهة ثالثة.

⁽⁵⁾ خليل أحمد : نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية ، نموذج لبنان ، دار الحدائق ، بيروت ، 1979 ، ص 227

⁽⁶⁾ عدة مؤلفين: البيولوجي والاجتماعي في الإبداع الفني (ترجمة عن الإنجليزية: محمد سعيد مضية) ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ، 1983 ، ص 178

وعالج أكثر من مائة وستين كتاباً غلب عليها هذا الاتجاه⁽⁷⁾

ومن الملاحظ أن غالي شكري وصف النقد العربي الحديث بالتقصير، لأنه تخلف عن المنهجية الاجتماعية، و«الخصوصية المنهجية لا تتناقض مع الخبرات العامة لخصوصيات الآخرين، على أن تكون حصيلة المدلول الشامل لتطور حركتنا الأدبية وجملة القوانين النوعية لفنوننا الأدبية.. جنباً إلى جنب مع التحليل والتركيب للعمل، أي بالحصول على قيمته المطلقة في ذاته وقيمه النسبية معاً»⁽⁸⁾.

أرجع باحثون أمثال حسين الحاج حسن الاتجاه الاجتماعي إلى الموروث النقدي عند العرب أيضاً كالدراسات الاجتماعية عند العرب والتفكير الاجتماعي في العهد العربي، شأن ابن خلدون، وعالج اللغة والعلوم الاجتماعية والقيم والمعرفة والإيديولوجية ودورها في الحياة الاجتماعية بما يؤشر إلى تلازم الثقافة والتغيير الاجتماعي، ورتب الأقسام عن تصنيفات وحقائق ثقافة أي مجتمع وفق البنود التالية:

أ - الاستنباطي، وهو المستند إلى الخبرة والمزاولة كالحرف والمهارات والصناعات والعلم والتكنولوجيا والمنطق.

ب- الجمالي، كالأعمال الفنية والرموز المعنوية.

ج- الضبط، بمعنى التأثير على أفراد الجماعة بوسائل مادية كشعارات السلطة والشارات الوطنية، ووسائل غير مادية كالعادات والقواعد الخلقية والقصاصات الدينية والقوانين الوضعية⁽⁹⁾.
غير أن الاتجاه الإيديولوجي في النقد الروائي في سورية ظل متعلقاً بالنقد الماركسي المباشر، واستفاد إلى حد قليل من تطوراته عند لوكتاش وجارودي وغيرهما.

الاتجاه النيوي التكويني (Genetic Structuralism):

تتعلق المناهج الأمبريقية والجدلية من نظرية «فيبر»، وهو عالم اجتماع مشهور، طلب في فلسفته أن يُقرن التحليل بعلميته وعمليته، استناداً إلى النظرية الجدلية التي أطلقها «هيغل» أولاً، وطورها «ماركس» فيما بعد. وسنذكر نموذجاً من ممثلي هذا المنهج، وأقصد تيودور أدورنو ممثلاً للتيار الأمبيريق، الذي انتقل من الممثلين الألمان مستفيداً من الفلسفة الجدلية، وقد ارتهن شغله بالأمر التالي:

• مجانية المباشرة الأيديولوجية، وتأخذ مجالات التبشير العقائدي، فالواقعية الاشتراكية تقوم على التبشير

⁽⁷⁾ هناك كتب نقدية كثيرة مطبوعة عام 1979 لم يذكرها المؤلف. ونشير إلى بعض هذه الكتب: كتاب أحمد طالب الإبراهيمي «من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية» (د. ت. منشور عام 1971) حسب الأحرف الأبجدية إلى كتاب عبد الحميد يونس «الأسس الفنية للنقد الأدبي» (1958). أما أقدم كتاب مطبوع في دراسته فهو كتاب «الديوان في الشعر والنقد» لعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني (1921)، وثمة آخر ثلاثة عشر كتاباً مطبوعاً عام 1979 لطراد الكبيسي «الغاية والفصول»، ونبية القاسم «دراسة في القصة المحكية الفلسطينية»، وريتا عوض «أدبنا الحديث عن الرؤيا والتعبير»، ومنير العكش «أسئلة الشعر»، وأحمد محمد عطية «توفيق الحكيم اللامنتمي»، ورياض عصمت «الصوت والصدى»، وفاروق عبد القادر «ازدهار وسقوط المسرح المصري»، ومحي الدين صبحي «الكون الشعري عند نزار قباني»، وعصام محمد الشنطي «الجمالية والواقعية في نقدنا الحديث»، وإحسان سرقيس «الثنائية في ألف ليلة وليلة»، وإلياس خوري «دراسات في نقد الشعر»، وعلي الخليل «البطل الفلسطيني في الحكاية الشعبية»، وجبرا إبراهيم جبرا «بنايب الرؤيا».

⁽⁸⁾ غالي شكري: سوسيولوجيا النقد العربي الحديث، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص 265.

⁽⁹⁾ حسين الحاج حسن: علم الاجتماع الأدبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص 249.

العقائدي للماركسية مثالياً [وبعض مكوناتها من نظرية الانعكاس إلى التفاضلية إلى جماليات خاضعة للتسويق، وهذا الأمر يحول النص إلى مادة تسويقية للفكر]. ونشير الآن إلى أمثلة أخرى لهذه المناهج الجدلية في علم اجتماع الأدب التي انطلقت من هيجل:

أ- الكلية والنمطية عند (جورج لوكاتش): إذا أخذنا «الرواية التاريخية» (1926)، وسبقها بقليل كتابه «التاريخ والوعي الطبقي»، وشرح فيه شيئاً من تناوله للرواية التاريخية.

ب- وثمة تنميط للعلاقات الاجتماعية عند لوكاتش، ولكنه يخضع للمواضعات الاجتماعية، وهذه المواضعات رهينة لعمليات إنتاج المجتمع، لكن التنميط يتعارض مع تعالقه للقوانين الطبيعية. والمرء مسؤول عن عقده بالنسبة لعلم الاجتماع [المنهج الاجتماعي لا يخضع لتأويل الكلام].

• انتقل النقد الاجتماعي إلى المنهج البنوي التكويني، الذي أسسه «لوسيان غولدمان»، ولا يقوم على الكلية والنمطية كما عند لوكاتش، وإنما يقوم على الكلية ورؤية العالم، وتستند هذه النظرية إلى المنظورات التالية :

أ- المذهب الفينومينولوجي (الظاهراتي): بمعنى أن الظواهر الفردية لا يمكن فهمها بشكل ملموس إلا في إطار تجانس كلي، ويستدعي ذلك عمليات ظهور المجموع كله في العناصر الكلية.

ب- الاستناد إلى الأفكار في تكون رؤية العالم، واستند «غولدمان» في كتابه «الإله الخفي» إلى تحولات فكرة الأسطورة، والأسطورة هي استنباط أفكار من تشكيلات اجتماعية بدائية أو بدئية، وهذه النظرية هي التي شكّلت نظرية الأساطير والنماذج الأولية عند «نورثروب فراي».

ج- قابليات تعدد المعاني باستخدام المعادلات المفهومية لمعطيات ووعي النص للعالم، لأن العمل الفني أو الأدبي ليس نتاج مؤلف بوصفه فرداً، لكنه يكشف الوعي الجماعي والمصالح والقيم الاجتماعية لجماعة أو طبقة، والأعمال العظيمة وحدها هي التي تعبر بانساقها عن رؤية للعالم ووعي لجماعة أو فئة أو طبقة ما.

د- يغلب الفهم الأمبريقي الجدل على رؤية العالم، لأنك لا تنتظر إلى رؤية العالم على أنها تتبع عالم التجارب اليومية التي تتصف بالسلام القيمة المتصلة المستقرة إلى حدّ ما، بل إن العمل العظيم هو وحده الذي يحتوي على بنية الوعي الاجتماعي الجماعي التي تظهر رؤية للعالم كلية دالة من القيم والمعايير. إننا بصدد ووعي الممكن، لأننا نجده باطناً في العمل حيث يحلله، ويعيد بناءه عالم اجتماع الأدب في مفهوم رؤية العالم⁽¹⁰⁾.

عضد الاتجاه البنوي التكويني الأسس الجديدة للنقد الاجتماعي من خلال تشيير عمليات انتماء القارئ الاجتماعية إلى تحديد آفاق القراءة وافتتاحها على فضاءات التأويل، فكل قارئ هو «أنا» يأتي من علاقات القربى ومن العلاقات الرمزية التي تحدده أيضاً، وتفتح له فضاءات البحث والتأويل، وتغوص القراءة النقدية الاجتماعية في تاريخانية اجتماعية محددة، وما تهتم به القراءة النقدية الاجتماعية هو تواصل الأشكال الأدبية مع التاريخ الذي يظهر في تاريخية الخطاب الأدبي واجتماعيته شعرياً وتخييلياً، ويوافق الاتجاه البنوي التكويني تثبيت تاريخية النصوص واجتماعيتها لئلا تبخس قيمة هذه التاريخية والاجتماعية، وبفضي ذلك إلى الوعي التاريخي في البنية النصية، ويكشف عن المعنى وما وراءه في هذه البنية. وتكمن خلاصة الاتجاه البنوي التكويني في إضاءة نظرية العلاقة بين الأدب والمجتمع بتقدير البنية ومحتواها⁽¹¹⁾.

(10) عالج بيير زيبا تطورات هذه المناهج إلى المنهج البنوي التكويني عند غولدمان في كتابه: النقد الاجتماعي، (ترجمة عابدة لطفي، مراجعة أمينة رشيد وسيد البحراوي)، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 41-156.

(11) مجموعة من الكتاب : مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، (ترجمة رضوان ظاظا)، ص 165-208.

أوجز الاتجاه النبوي التكويني رؤية العالم بوصفها تكويناً معرفياً يتجاوز إبداع الكاتب أو منظوره الخاص إلى رؤى عميقة للواقع والتاريخ داخل البنية، و«هذه البنية، بتعبير آخر، هي رؤية العالم وقد تماثلت في العمل الأدبي، أي تحولت إلى نسق من الرؤى والأفكار المترابطة»⁽¹²⁾. وفهم الاتجاه النبوي التكويني على أنه «جزء من علم اجتماع المعرفة، لأنه يحدد بين الذات والموضوع، وبين الفكر والعالم، وبين الفئات الاجتماعية واندماجها داخل نسق أوسع هو الطبقة الاجتماعية. ويتحدث عن تكوين الفئات وأنواعها وتأثيرها في شعور الفرد واستجابته للشعور العام السائد»⁽¹³⁾.

جاهر غولدمان بمنهجية القائمة بين الكلية والجزئيات في كتابه الشهير «الإله الخفي» (1956)، «فالتريقة التي مفادها الانطلاق من النص التجريبي المباشر إلى الرؤية التصويرية اللامباشرة ثم الرجوع إلى المعنى المحسوس للنص الذي انطلقنا منه، هذه الطريقة ليست من ابتكار المادية الجدلية. والفضل الأكبر لهذه الطريقة هو أنها، بتلاؤم فكر الأفراد مع مجمل الحياة الاجتماعية وخاصة بتحليل الوظيفة التاريخية للطبقات الاجتماعية، قدمت أساساً موضوعياً وعملياً لمفهوم رؤية العالم، وجرّته من كلّ طابع اعتباطي ونظري وما ورائي»⁽¹⁴⁾. ولا يخفى أن غولدمان يعتقد «أن اكتشافه للتشاكلات البنوية homologies (أي المماثلات الشكلية) بين مختلف أجزاء المرتبة الاجتماعية جعل نظريته الاجتماعية ماركسية على نحو فريد، وميزها عما يماثلها من نظريات برجوازية أصرت على تقسيم كلية الممارسات الاجتماعية إلى مناطق مستقلة في التطور تدير نفسها ذاتياً. ومن هذه الناحية كان عمله استمراراً لماركسية لوكاتش الهيغلية»⁽¹⁵⁾.

ركّز غولدمان في كتابه «مقدمات في سوسيولوجية الرواية» (1964) على التوافق بين البنى الأدبية والبنى الاقتصادية، من خلال العناية بتحليل معمق للبنية الفوقية والقاعدة أو البنية التحتية إشارة إلى التركيب الاجتماعي وتشكلاته في الرواية، وقد خلص إلى القول بعد الدراسة البنوية لروايات اندريه مالرو، أن كلّ تأثير واع مستبعد، ويقوم الكاتب بمثل هذا الأمر، في زمنين متقاربين، بتعميق مواقف معقدة ومتقاربة في آن واحد يحمل على افتراض تأثير عوامل غير فردية وربما اجتماعية، غير أن هذا التثبيت لا يطرح سوى مشكلة، ولا نملك أية فرضية يمكنها مساعدتنا على توضيحها⁽¹⁶⁾.

لا نغفل أن الاتجاه النبوي التكويني ترسّخ بعد ذلك بجهود لويس التوسير وبيير ماشيري في إضاءة الفكر الأدبي من الأدلجة إلى وعي النص المؤدلج وفق بنيته التكوينية الحاملة للمحتوى الاجتماعي في تراكم الخطاب والتخييل مع المجتمع والتاريخ لدى كشف الدلالات والتشابهات مع البنى الفكرية والاجتماعية لعصره. ودخل الاتجاه الاجتماعي مع الاتجاه النصي إلى حدّ كبير في الاتجاه النبوي التكويني، كما أوضح ذلك هنري ميتران في كتابه «خطاب الرواية» (1980)، «حيث سمح له الكشف المنهجي للشروط التاريخية والإنتاج الأدبي، بتعريف شروط هذا الإنتاج ورهاناته وقواعده، ففي كل معيار يمكننا قراءة تشابك الخطابات وتصادمها، حيث يفهم الخطاب بوساطة الخطاب الأخرى»⁽¹⁷⁾.

(12) ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، ص 78.

(13) محمد نديم خشفة: تأصيل النص، المنهج البنوي لدى لوسيان غولدمان، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1997، ص 56-57.

(14) لوسيان غولدمان: الإله الخفي، الفصل الأول مترجم ضمن كتاب: «في البنوية التركيبية - دراسة في منهج لوسيان غولدمان»، دار ابن رشد، بيروت، 1982، ص 172.

(15) إرامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة (ترجمة سعيد الغانمي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996، ص 65.

(16) لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسيولوجيا الرواية (ترجمة بدر الدين عرودكي)، دار الحوار، اللاذقية، 1993، ص 173.

(17) جان ايف تادييه: النقد الأدبي في القرن العشرين (ترجمة قاسم المقداد)، وزارة الثقافة، دمشق، 1993، ص 251-252.

تطور الاتجاه البنوي التكويني كثيراً حين تعالق مع النقد الثقافي، ليتشكل بموروثه وبمراعاة عناصر التمثيل الثقافي اتجاهاً جديداً نمّاه في الوقت نفسه الاتجاه البنوي التكويني وبدت ممارسة هذا الاتجاه في كتابات بعض النقاد مثل محمد عزام ، على أن الالتزام بهذا الاتجاه قليل الانتشار في النقد الروائي.

أبرز الجهود في تطبيق النقد الاجتماعي:

كان النقد الأدبي المتأثر بعلم الاجتماع⁽¹⁸⁾ هو المهيمن على حركة النقد الأدبي العربي الحديث، منذ الخمسينيات، من باب الأيديولوجية والمذهب الواقعي على وجه الخصوص، ثم سرعان ما مزجت الأيديولوجية والمذهب الواقعي تأثيرات الاتجاهات الجديدة، فيما عرف بعلم الاجتماع الأدبي كما تكون على أيدي منظريه البارزين، ممن نقلت بعض أعمالهم الأساسية إلى العربية أمثال لوسيان غولدمان وروبير اسكاربيت وبيير زيماء. وساعد ذلك على التقليل من وطأة الأيديولوجية، متعاضداً مع التعديلات الكبرى التي طالت النقد الأيديولوجي لدى منظرين ماركسيين أعادوا تقدير قيمة الشكل في العمل الفني واستقلالية النص الأدبي في صوغ مجتمعه الخاص، مثل تيري ايجلتون وماثيري ولوي التوسير، وأعيد تقييم عناصر هامة مثل التقاليد والتناص والتاريخ والمجتمع، وهي تفعل فعلها في التشكل الأيديولوجي.

تمرس المسعى إلى المنهج الاجتماعي لدى غالبية الباحثين والنقاد والدارسين ضمن مناهجهم النقدية نفسها عناية بالأفكار والمعتقدات التي تحكم على الأبعاد الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، ولا مجال لحصر هذه الجهود، واقتصر على التعريف النقدي بجانب من المؤلفات حول المنهج الاجتماعي للأدب بعامة وللرواية بخاصة، وأحدثت عن الكتب النقدية المعنية بالرواية المغاربية من جهة ولا سيما نماذج منها، وأبحاث مؤتمر نقدي عربي حول المنهج الاجتماعي من جهة أخرى.

ظهرت كتب نقدية كثيرة تقارب المنهج الاجتماعي في النقد انتظاماً مع الاتجاهات الأيديولوجية ، والبنوية التكوينية ، عند عشرات الباحثين والنقاد العرب ، ومن أبرزهم الناقد نبيل سليمان (سورية) ، الذي نشر أكثر من عشرة كتب في نقد الرواية مقارنة بالمنهج الاجتماعي ، ولا سيما الأيديولوجية⁽¹⁹⁾ وهناك الكثير من الكتب النقدية الباحثة لهذا المنهج في دراسة الرواية الجزائرية على وجه الخصوص⁽²⁰⁾ وأعرف بعدد منها للنظر في طبيعة

(18) عالجت الممارسة العربية للنقد الاجتماعي باتساع في كتاب عبد الله أبو هيف «النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد»، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000. وأوردت جانباً من هذه المعالجة ص 184-191.

(19) درس عبد الله أبو هيف في كتابه " اتجاهات النقد الروائي في سورية" إبداعات نبيل سليمان النقدية منهجاً اجتماعياً وإيديولوجياً ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2006، ص 221 - 248 .

(20) أذكر النماذج التالية: محمد مصاييف (الجزائر) «الرواية العربية الجزائرية بين الواقعية والالتزام» (1983) ، و عبد الفتاح عثمان (مصر) «الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع» (1993) ، وإدريس بوديبة (الجزائر) «الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار» (2000) و علال سنفوقه (الجزائر) «المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية» (2000) ، وإبراهيم عباس (الجزائر) «الرواية المغاربية - الجدلية التاريخية والواقع المعيش، دراسة في بنية المضمون» (2002) ، ولينة عوض (الأردن) «تجربة الطاهر وطار الروائية بين الإيديولوجيا وجماليات الرواية» (2004). ومحمد عزام (سورية) «وعي العالم الروائي - دراسات في الرواية المغربية» (1990). وهناك أبحاث مؤتمر جامعة الجزائر حول المنهج الاجتماعي في تحرير النصوص (أبريل 2001) وعالج كذلك باحثون ونقاد تطبيقات النقد المنهجي الاجتماعي في الرواية وهي كتب كثيرة ونذكر منها أنموذجاً : - عبد الله رضوان (فلسطين) " الراي : دراسة في سوسولوجيا الرواية العربية" (1995) . - صالح سليمان عبد العظيم (مصر) " سوسولوجيا الرواية السياسية" (1998) . - قيس كاظم الجنابي (العراق) " ثلاثية الروواق - الرؤية والبناء - دراسة في الأدب الروائي عند عبد الخالق الركابي" (2000) . - عمر عيلان (الجزائر) " الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي - دراسة سوسيونائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة" (2001) .

المنهجية النقدية والعلمية والمعرفية للنقد الاجتماعي في الممارسة النقدية العربية، عند نقاد الرواية الذين اعتنوا بالأدب المغربي بعامة، والأدب الجزائري بخاصة على سبيل المثال:

عبد الفتاح عثمان:

ألف عبد الفتاح عثمان (مصر) كتابه «الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع، دراسة تحليلية فنية» (1993)⁽²¹⁾ تعريفاً بالأدب الجزائري الذي يكاد يكون مجهولاً في المشرق العربي آنذاك، وغلب بناء على ذلك، المنهج الوصفي التحليلي متداخلاً مع المنهج الموضوعي الاجتماعي، أي التركيز على المحتوى دون الشكل بالدرجة الأولى لدى معالجته واقع الحياة في الجزائر وتطوراتها، كما تبثت في عدد من الروايات البارزة، والإلماح قليلاً إلى الشكل الفني. واستند إلى تقديره العام لهذا المستوى الفني، ولم يعتن بتقاناته وبتفاصيله الفنية المتعاضدة مع الموضوعات الاجتماعية على وجه الخصوص، وأكد أن «الرواية الجزائرية عبرت بصدق وواقعية عن معاناة وطموحات الإنسان الجزائري، وكفاحه المسلح في سبيل الاستقلال، ونضاله القاسي في سبيل إقامة مجتمع الكفاية والعدل عن طريق الثورة الزراعية والتسيير الاشتراكي، كما عبرت بجسارة واقتدار عن السلبات التي سادت التطبيق الاشتراكي، وشوّهت وجه تجربة الثورة وكشفت عن الصراع الشرس بين القوى الرجعية الممثلة في الإقطاعيين والرأسماليين، والقوى التقدمية الممثلة في المناضلين الشرفاء من أبناء الطبقة الكادحة الذين يبذلون عرقهم من أجل زيادة الإنتاج في الأرض والمصنع»⁽²²⁾.

من الواضح، أن مثل هذه الأحكام النقدية خارجة عن النصوص الروائية، لأن النقد الروائي مرتين بمحتوى هذه النصوص، مثلما أشار إلى العنوان الثاني لكتابه «دراسة تحليلية فنية»، والأصح هو دراسة موضوعات اجتماعية مرتبطة بالأحكام النقدية، التي رأت أن الرواية الجزائرية هي الأكثر تعبيراً «عن الواقع الجزائري بروى متعددة، وتكنيكات فنية متميزة، وصياغات لغوية مبيّنة»⁽²³⁾، وأنها «أكثر الأجناس الأدبية ارتباطاً بالواقع وتعبيراً عنه»، و«هناك ارتباط حتمي داخل نسيج العمل الروائي بين اللحظة التاريخية بتداعياتها السياسية والاجتماعية، واللحظة الإبداعية الفنية»⁽²⁴⁾.

دافع الناقد عن أدلجة المضمون الاجتماعي، وربط الفكر والشعور والموقف بالرؤية الإيديولوجية في الحياة، من خلال درامية الحياة ومعادلتها الفنية للواقع. وتمثل ذلك في أفانيم أربعة هي الكفاح المسلح، والثورة الزراعية، والفساد الإداري، والاعتراب عن الوطن. واختار الروايات التي تعد علامات بارزة في تطور الرواية الجزائرية شكلاً ومضموناً، وأن هؤلاء الروائيين هم الصفوة من جيل الرواد والجيل الذي تلاه، واستثنى رشيد بوجدره، ضمن أحكامه النقدية الخارجية، ووصف رؤيته للواقع الجزائري بأنها «مشوشة مضطربة ضبابية»⁽²⁵⁾.

الروايات المدروسة هي:

* واقع الكفاح الثوري المسلح: «اللاز» لطاهر وطار، «نار ونور» للدكتور عبد المالك مرتاض، «طبور في الظهيرة» لمرزاق بقطاش.

(21) عبد الفتاح عثمان: الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع، دراسة تحليلية فنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.

(22) المصدر السابق ص 27.

(23) المصدر السابق ص 8.

(24) المصدر السابق، ص 9.

(25) المصدر السابق، ص 14.

* واقع الثورة الزراعية: «رياح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة.. «العشق والموت في الزمن الحراشي» و«الزلزال» للطاهر وطار، «الأكوخ تحترق» لمحمد زيتلي.

* واقع النقد الذاتي: «الشمس تشرق على الجميع» لإسماعيل غموقات، «الخنازير» لعبد المالك مرتاض.

* واقع الاغتراب: «ما لا تذروه الرياح» لعرار محمد العالي، «المرفوضون» لسعدي إبراهيم.

أورد مثلاً لمنهجية حديثة عن رواية عبد المالك مرتاض «نار ونور» (القاهرة، 1975)، في كتاب عبد الفتاح عثمان وهو حديث وصفي عن موضوع الرواية، يقترب من الإنشاء اللغوي في رصدها «الكفاح المسلح للشعب الجزائري داخل إطار عاطفي ينمو مع نمو الأحداث، ويرتبط بحركة الصراع الدرامي مما جعلها تتخذ طابعاً عاطفياً إنسانياً، ومن ناحية الاتجاه الإيديولوجي يتعاطف مرتاض مع الطبقة الشعبية الأقلية الكادحة صاحبة المصلحة العليا في الثورة دون انتماء حزبي للكوادر الشيوعية، وانبعاثه الحقيقي هو للطبقة الواعية المثقفة المرتبطة بأرضها وتراثها وحضارة العربية والإسلامية.. الخ»⁽²⁶⁾

وانتقل فجأة إلى التنكيك الفني، وأصدر أيضاً أحكامه النقدية واصفاً بناءها بالكلاسيكي ولغتها «بالاستمداد من التراث، والاستطراد الذي أثقل كاهل البناء الروائي، وأصابه بالترهل»⁽²⁷⁾. واستغرق في الأحكام النقدية التي تجعل كتابته النقدية أقرب إلى المراجعة وفق أحكامه الخاصة، وليس من داخل النصوص الروائية، على أن الرواية «أرخت لمرحلة من مراحل المقاومة ضد الاستعمار بروية وطنية قومية بعيدة عن التيارات الإيديولوجية البعيدة عن روح العدل والإنصاف. كما يذكر للدكتور عبد المالك مرتاض دوره في إحياء اللغة العربية الفصحى التي يستخدمها دائماً في أعماله الروائية، ودفاعه القوي عن الحضارة العربية الإسلامية فيما يكتب»⁽²⁸⁾

على الرغم من أهمية هذه الكتابة وتقديرها لإبداع مرتاض، فإنها وصفية للموضوع الاجتماعي المقارب لرؤية الواقع دون الالتزام بمنهج نقدي محدد، ولا سيما الاجتماعي، وهذا هو حال أحكامه للروايات الأخرى.

إبراهيم عباس:

استناد إبراهيم عباس (الجزائر) من المنهج الاجتماعي في كتابه «الرواية المغاربية، الجدلية التاريخية والواقعي المعيش، دراسة في بيئة المضمون» (الجزائر 2002)⁽²⁹⁾، فقد حلل المحتوى في البنية اعتماداً على معطيات النقد الموضوعي المعني بالموضوع داخل المبنى النصي، وحاول أن يدغم هذا الموضوع بالوعي الإنساني، من منطلق أن الرواية شكل من أشكال هذا الوعي الذي تصبّ فيه أفكار الإنسان ورغباته وأحاسيسه في صراعه مع واقعه ومحيطه.

اهتم الباحث بالشكل الروائي بوصفه مكوناً رئيساً من مكونات العمل الأدبي والنقدي، وحدد اتجاهات ثلاثة أهملت كلياً أو جزئياً الشكل الفني، مثل البدايات الأولى للنقد الروائي التي تغفل في دراسات المقومات الشكلية إغفالاً تاماً، عند التركيز على اجتماعية المضمون وحده، نحو طغيان جانب المضمون مع حضور المقومات الشكلية، وإن

(26) المصدر السابق، ص 51-52 .

(27) المصدر السابق، ص 52 .

(28) المصدر السابق، ص 58 .

(29) إبراهيم عباس: الرواية المغاربية، الجدلية التاريخية والواقعي المعيش، دراسة في بنية المضمون، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، 2002.

لم يخرج هذا النمط من الدراسات من أسر القوالب النقدية الجاهزة الوافدة من الغرب لدى أصحاب المدرسة السوسيولوجية ونقاد المدرسة الواقعية الاشتراكية ، وطغيان الجانب الشكلي على حساب المضمون ، إذ يقلد هؤلاء الباحثون والنقاد المدرسة الشكلانية، ويعترفون من النقد البنيوي شكلياً، فحسب، إغفالاً للمضمون ، ومثل هذا الرأي الصادر عن إبراهيم عباس لا يتفق مع الممارسة النقدية، لأن المنهجية متصلة بالنظرية والتطبيق معاً، ولا تقتصر على ملمح بعينه أو عنصر بذاته من عناصر النقد، ولا تتدرج هذه الكتابات في اتجاهات، لأن أصحابها يهتمون الشكل أو المضمون، ولا يطبقون منهجاً ما.

أورد عباس هذه الممارسة من خلال تاريخها، فقد هيمنت معالم النقد الإيديولوجية وطغت على بقية الاتجاهات الأخرى منذ الأربعينيات حتى نهاية السبعينيات احتقلاً بالمدرسة الواقعية ومقوماتها كالالتزام والوظيفة الاجتماعية ونظرية الانعكاس والأدلجة.. الخ، حتى أن باحثين مثل محمود أمين العالم وصف المضمون بالموقف الاجتماعي، ويقوم على تلازم الوعي الاجتماعي والفردي.

أفاد الباحث أيضاً ، تشخيصاً للتطور النقدي، أن المنهج الاجتماعي ترسخ مع ظهور الاتجاه البنيوي وبروز غولدمان وتفعيل مستويات الوعي وأشكاله في تشكيلات المبنى والمعنى، ووضع بناء على ذلك، مدخل منهجي لدراسة المضمون في الخطاب الإيديولوجي قبل الانتقال إلى كيفية صياغته.

ووجد عباس أن المنهج الاجتماعي، لا يفتقر عن التوجهات الإيديولوجية في مدى انعكاس الوعي، بما يجعل الرواية مفصحة عن «معرفة، ووعي، وإيديولوجية سابقة، ومحددة لسيرورة تاريخية»⁽³⁰⁾.

تتداخل الإشكالية التاريخية مع صيرورة تشكلها الفني لحمل الخطاب الإيديولوجي في المبنى النصي، ورسم هذا الخطاب في مستويات ثلاثة:

الأول: هو الواقع المعيش بكل تفاعلاته ومتناقضاته، نحو النظر إلى بنية الرواية الموضوعية، من خلال المبنى النصي بالذات.

الثاني: هو المستوى النظري أي جوهر الخطاب الأدبي على أنه الحل (الخلاص). ويتصل الخطاب من خلال الأنماط النظرية: الاقتصادية، السياسية، الفكرية والاجتماعية.

الثالث: هو مستوى النصوص ذاتها، بوصفها خطاباً للمؤلف، يدعو من خلاله إلى غاية بعينها (إيديولوجية محددة)، وأوجز تطبيقه للمنهج الاجتماعي على عدد من الروايات المغربية عناية بالمستوى الجمالي (جانب الشكل) ومدى تعبيره عن الهم الفكري والإيديولوجي لدى العناية بالموضوع والمنهج، لأن علاقة الرواية المغربية بالإيديولوجيا خلال فترة زمنية محددة، من تاريخ هذه المنطقة أشبه ما تكون بعلاقة الماء بالحياة «وكان لهذه الانتماءات الإيديولوجية أثرها البارز في تحديد الإطار العام لنشأة هذه الرواية وتطورها، في الستينيات والسبعينيات على وجه الخصوص، حيث تصادف بداية هذه المرحلة انبلاج فجر الاستقلال، ونهايتها بزوغ فجر عهد الانسلاخ من الواقع المعيش والتوجه صوب واقع جديد قيد التكون، ويرى المصير القومي في التحولات الراهنة وتفاعلها مع الماضي في شكل جدلي يؤطر الهدف المنشود الذي يغلف الخطاب الإيديولوجي في النص.

طبق عباس بحثه عن الموضوع والمنهج لإظهار الخطاب الإيديولوجي في عدد من الروايات على سبيل

(30) المصدر السابق، ص 9.

المثال، مثل معالجة جدلية التاريخ المعيش والذاكرة التاريخية في روايات جزائرية⁽³¹⁾

شرح عباس في مقدمة المعالجة إشكالية الموضوع، كما هي الحال، مع البعد الفكري للإيديولوجيا الوطنية في روايات محمد العروسي المطوي، فقد شكلت هذه الإيديولوجية، برأيه، الإطار الفكري لخطوات السير الثوري ضد المستعمر الغاشم، وتبلورت فكراً ريادياً قيادياً موجهاً للحركة الثورية في الوطن العربي عموماً، وفي المغرب العربي على وجه الخصوص. وانطلقت هذه الإيديولوجيا من استيعابها لمزايا الأدلجة المختلفة التي تواصلت مع الفكر العربي بالمغرب، دون إهمال التراث أو إبعاده عن دائرتها تشكلها، وفهمت فهماً ثورياً، مثلما لم تهمل الفكر الثوري العالمي، وتعاملت مع الواقع المباشر، ونظرت إلى الواقع المغربي بعامة، إلى الواقع التونسي بخاصة، وجاوزت إلى حد كبير إشكالية المنظور القومي، ومحددات الإيديولوجيا الاشتراكية للصراع الطبقي، وعمقت تحليل بنية المجتمع ضحية للآخر المهيم، على الرغم من استفادتها من الأدلجة الماركسية وبعدها الاستراتيجي انطلاقاً من خصوصية المجتمع التونسي ومرحلته التاريخية.

انتظمت الأطر العامة لهذه الإيديولوجية في صوغ النظرة الجديدة للذات القومية والواقع التونسي الذي لا يفتقر عن الواقع العربي، وصورت رواية «ومن الضحايا» الطبقة الشعبية الكادحة المغلوبة على أمرها في شخص «الفتى» (المتقف الوطني)، «ومن خلاله تقديم صورة عن نهضة الوعي الاجتماعي والسياسي، في ظرف تاريخي استعماري قمعي تفقيري، حيث هيمنت الطبقة الإقطاعية الدخيلة، (الكولون) واستيلائها، ومصادرتها للأراضي التونسية بطريق ملتوية»⁽³²⁾.

شكلت كتلة العملاء المحليين، والإقطاع المحلي العميل للمستعمر مظهراً من مظاهر الاستعمار في رواية «التوت المر» التي تعرض «هيمنة الإيديولوجيا الوطنية التي ترى في هؤلاء الأخطبوط الذي يمتص دماء الفقراء والمساكين، المعوزين، السيد عبد الصمد بليد أبلد لكنه يعيش في الريش والحشايا، وينعم برغد العيش وبذخ الحياة، وفوق ذلك فهو يحسب أمثاله من المعذبين في الأرض خدماً له يسومهم سوء العذاب بما يكفلهم من عمل شاق ليمنن عليهم بأبخس الأجر»⁽³³⁾. والرواية، بهذا المعنى الناجم عن معالجة الموضوع والمنهج، تصور مراحل كفاح سكان الجنوب ضد المستعمر، وضد أعوانه الذين تسببوا في البؤس الاجتماعي، وتؤشر هذه المعالجة في كتابه إلى عنايته بمبنى النص لدى تحليله للموضوع، وإن غلب على كتابته النقدية التوصيف الفكري الاجتماعي بالدرجة الأولى.

لينة عوض:

لينة عوض (الأردن) كتابها «تجربة الطاهر وطار الروائية بين الإيديولوجيا وجماليات الرواية» (عمان 2004)⁽³⁴⁾، بالاستناد إلى الواقعية الاشتراكية وتمثلات نقدتها الماركسي متناغماً مع البنوية لتحليل الأبنية

⁽³¹⁾ درس الناقد الروايات التالية : : الطاهر وطار «اللاز» (الجزائر 1974)، و«الزلال» (الجزائر 1976)، و«العشق والموت في الزمن الحراشي» (الجزائر 1980)، وجدلية الأنا والآخر المنقذ في رؤية عبد الله العروي من خلال روايته «الغرب» (الدار البيضاء 1981) و«البيتم» (الدار البيضاء 1978)، والإيديولوجيا الوطنية ورؤية الواقع الاجتماعي في روايات محمد العروسي المطوي «ومن الضحايا» (تونس 1956)، و«حليمة» (تونس 1964)، و«التوت المر» (تونس 1967).

⁽³²⁾ المصدر السابق، ص 108.

⁽³³⁾ المصدر السابق، ص 118-119.

⁽³⁴⁾ لينة عوض: تجربة الطاهر وطار الروائية بين الإيديولوجيا وجماليات الرواية، أمانة عمان الكبرى، عمان، 2004.

الروائية في الإيديولوجية في روايات جزائرية عديدة⁽³⁵⁾: ونظرت في تأثير الأدلجة في فنية الرواية، على أن «الحركية الفكرية استطاعت أن تترك أثرها في البناء الفني، أي أن الحراك الفكري أوجد حراكاً فنياً مع تطور تجربة وطار»⁽³⁶⁾.

أشارت إلى حماسة وطار الإيديولوجية الاشتراكية التي خضعت لها رواياته الأولى، حتى إنه غرق في أزمة الخطاب الإيديولوجي تالياً، مما أوقعه في كثير من التناقضات الفكرية، ومنها التأثير في البناء الفني الذي جعل الشخوص منمطة تميظاً واضحاً، كما أوضحت بعض الأبنية الفنية بتجربيتها مغرقة في الحوار الحضاري، ومالت لغة السرد إلى الخطابية والمباشرة.

اتصل نقدها الاجتماعي بجانب الرؤية والتشكيل لاستدراك التعامل النقدي السابق مع أعمال وطار في الكتب والأطروحات الجامعية التي عرضت المضامين الإيديولوجية دون أن تعنى إلا قليلاً بالبناء الفني، واهتمت بدراسة القضايا الإيديولوجية وتشكلاتها عند وطار، مثلما عرضت لقضايا فكرية هي الأمل واليوتوبيا، والثالث المحرم (السلطة والجنس والدين)، وإشكالية العلاقة بين الأنا والآخر، من وجهة نظر الروائي، واشتمل الكتاب على دراسة البناء الفني لأعمال الروائية لإبراز أثر التشكيل الإيديولوجي في التجربة الفنية، لدى عناصر البنية الفنية: المكان والزمان والشخوص والترميز.

تحددت المنهجية تبعاً للظاهرة المدروسة، ففي الجانب الفكري الإيديولوجي استعانت عوض بمعطيات النقد الثقافي، وفي الجانب الفني أخذت بآليات المناهج النصية، ولا سيما المنهج السيميائي تعضيداً لمنهجية النقد الاجتماعي نحو تحليل الرؤى الفكرية والإيديولوجية من المبنى النصي، وتقريد الخطاب الروائي من خلال سياقاته المختلفة.

عرضت عوض تجربة وطار في إطار الحركة الروائية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وبالعربية، وخلصت إلى رأي مفاده أن ظهور الفن الروائي المدون بالعربية وارتقاءه منطلب سياسي وقومي ومحاولة لإثبات الهوية، أي منطلب حضاري قبل كونه منطلباً أدبياً. فإذا كانت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية قد ركزت على تشخيص مظاهر البؤس والحرمان والتخلف قبل الثورة التحريرية، فإن الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية حاولت أن تشير إلى أحداث الثورة الوطنية، ثم الخوض في الحديث عن ثورة البناء والتشييد التي انتشرت الفلاح والعامل الجزائري من بؤرة الفساد والتخلف»⁽³⁷⁾.

رهنت الباحثة تطور الفن الروائي الجزائري بروايتين «ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة التي تعد المؤسسة للواقعية في الأدب الجزائري العربي، و«رمان» لوطار، التي تؤكد اتجاهاً نحو الالتزام السياسي والفكري والنضالي، وتنامى الاتجاه الإيديولوجي في أعمال وطار على وجه الخصوص باختياره الاتجاه الواقعي الاشتراكي في عنايته الشديدة بالالتزام الإيديولوجي، وبتنوع أساليبه وتقاناته الفنية التجريبية، شأن «عرس بغل» ضمن الاتجاه الرمزي الكلي، و«الحوات والقصر» المتلاقحة مع التراث السردي القديم في الكتابة الروائية الجزائرية، و«تجربة

⁽³⁵⁾ «رمان» (الجزائر 1975)، و«الزلال»، و«الحوات والقصر» (الجزائر 1978)، و«العشق والموت في الزمن الحراشي» (الزائر 1980)، و«عرس بغل» (الجزائر 1982)، و«تجربة في العشق» (دمشق - قبرص 1989)، و«الشمعة والدهاليز» (بيروت 1996)، و«الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي» (الجزائر 1999)،

⁽³⁶⁾ المصدر السابق، ص 1.

⁽³⁷⁾ المصدر السابق ص 33.

في العشق» ضمن الاتجاه الذهني المعني بالالتزام الإيديولوجي. وأفادت أن وطار صوت روائي ريادي ممن «حملوا قضيتهم الوطنية والقومية معبرين عن هويتهم وواقع الوجود الجزائري»⁽³⁸⁾

حللت عوض القضايا الإيديولوجية وتشكيلها الروائي عند وطار، من خلال الأمل واليوتوبيا من جهة، والمدخل إلى الثالوث المحرم من جهة ثانية، والجدل بين الأنا والآخر من جهة ثالثة. وأبانت أن وطار حائر أمام موقفه من الاتجاه الإسلامي، إذ لم يطوّر فهمه الخاص للدين، ولا يتقبل فهم الناس المستلب له، فقد عمل على إخضاع قناعاته لمنطق الجماهير، فمنطقها الديني هو الخيار الذي بقي، ولم يطرقه الشعب الجزائري، وحاول «أن يقنع نفسه بهذا المنطق بالاستناد إلى مرجعيته الاشتراكية التي لم يعد يعرف ما يجب أن يصنع بها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي»⁽³⁹⁾.

إن هذا الرأي متكرر في كتابتها النقدية، ويبرز في منهجيتها الاجتماعية المعلنة بالتحليل النصي الباعث للمعاني والدلالات من دواخله، لا بإطلاق الأحكام القيمية الخارجية.

خصّصت عوض البنية الروائية الفنية عند وطار بالتحليل أيضاً، وعمقت القول حول التشكيل المكاني، وحركية الزمن الروائي، والشخص، والتميز، وفيها فائدة أن تربط الرؤى الفكرية بصوغها الفني الروائي تجنباً للأحكام النقدية المنتشرة في ثنايا كتابها، فقد عانى وطار (وهذا حكم خارجي) من عدم التلاؤم مع هذا الواقع المتغير بسرعة كبيرة، وسرعان ما انعكس على أبطاله الروائيين «الذين يعانون حالة من عدم التلاؤم مع الواقع أو عدم الفهم له، ويعكس هذا التنشيط في وعي الأبطال التقطيعات على بنية السرد تلك التي أخذت تجسد، شيئاً فشيئاً، الحالات الذهنية للبطل المأزوم نفسياً وإدراكياً»⁽⁴⁰⁾.

استخلصت عوض من تحليلها الإيديولوجي والفني أفكاراً كثيرة تجمع بين النقد الماركسي والتحليل النصي، مثل التجسيد للبطل المغترب والمتشطي الذي يشكل الفضاءات الروائية كافة، "من حضور للمكان المغلق وتصوير لليوتوبيات وتوظيف لأنماط السرد التي تسهم في حال الأبطال، كما يصبح حضور الرمز الفني أكثر وضوحاً، وتحديداً للرمز التاريخي الذي عبّر عن رغبة الكاتب في البحث عن إجابات لتساؤلاته الحضارية باسترجاع التاريخ ومحاولة الوقوف على وقائع شبيهة بالواقع الحضاري الحالي، من أجل الوصول إلى رؤية واضحة للواقع»⁽⁴¹⁾.

كتاب لينة عوض يوائم بين المنهجيات الإيديولوجية والفنية، ويقفل من الأحكام النقدية، ولوغاً في التحليل النصي من جهة، والتوصيف التاريخي والاجتماعي من جهة أخرى.

تؤشر مؤلفات النقد الاجتماعي الروائي الخاصة بالرواية المغاربية أنموذجاً إلى غلبة الوصف التحليلي المقترن بالأدلجة في المرحلة الأولى، ثم مقارنته للبنية الروائية حسب المنهج البنوي التكويني تالياً.

(38)المصدر السابق، ص 149 .

(39)المصدر السابق، ص 262 .

(40)المصدر السابق ص 223 .

(41)المصدر السابق ص 232 .

الاستنتاجات والتوصيات:

ارتبط النقد الاجتماعي حتى وقت قريب بإظهار المضامين الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، وقرن غالبية الباحثين والنقاد ذلك بالنقد الماركسي الإيديولوجي المعني بضبط المضامين بالجدلية الماركسية التي سيطرت على القضايا الأدبية والنقدية حتى نهاية السبعينيات باسم الواقعية الاشتراكية، والانعكاس، والالتزام، والتحزب، والانتفاء العقائدي.. الخ، وناهض باحثون ونقاد هذه الأدلجة بالنقد الاجتماعي الوصفي التحليلي أو الموضوعي، وهما مذهبان يوائم بين المحتوى والشكل إلى حد ما.

ثم تنوعت أحوال النقد الاجتماعي خلافاً بين الاتجاهات النقدية، وبرزت أشكال مغالطة القصد في النقد كلما أضاف الباحثون والنقاد الأحكام والأفكار الخارجية على داخل النصوص. وتخففت ضغوط الأدلجة والمعتقدات على النقد الاجتماعي بارتفاع علم السرد والحدائث النقدية، وهما مرتهنان بدواخل النصوص وإمكانات تحليلها بهذا الاتجاه النقدي الحدائثي أو ذلك لدى تطور البنيوية إلى اتجاهات ما بعد البنيوية من خلال التحام المبنى بالمعنى ومعنى المعنى (أو ما وراء المعنى)، وكان الاتجاه البنيوي التكويني الأكثر جلاءً، وتطورت عمليات تقصي الوعي والرؤى الفكرية والاجتماعية في الاتجاهات السيميائية والرمزية والأسطورية والحفرية المعرفية والتفكيكية والتأويلية.. الخ، غير أن السيميائية (حسب التعريب: العلامة) ، تصدرت الاتجاهات النقدية الحديثة إلى جانب البنيوية التكوينية في النقد الاجتماعي، وأشار أيضاً إلى الملاحظتين التاليتين:

أولاً: تشير التجربة الطويلة للنقد الاجتماعي في النقد الأدبي العربي الحديث بتطوراته الكثيرة وتلويناته المختلفة حتى مرحلة شيوع الاتجاهات النقدية الحدائثية وما بعد الحدائثية في التسعينيات، إلى أن آفاقه في تحليل النصوص الأدبية دون الشأو المأمول في تأصيله، لأنه في تلك الفترة الطويلة منذ الخمسينيات، كما رأينا، أسير ممارستين، الأولى هي النزوع التوفيقي لأمشاج من النقد الاجتماعي مع منهجيات واتجاهات أخرى، والثانية هي التطبيق التعليمي غالباً لمنهج أو آخر على النص والوقوع في لغة التعميم في أحيان كثيرة.

ثانياً: ظهور التحولات بالتزام المناهج الحدائثية النقدية ولا سيما البنيوية التكوينية من خلال:

أ - الاهتمام بالاتجاه الوصفي التحليلي تعالفاً بين مقومات مناهج نقدية أخرى لإبراز المحتوى أو المضامين.

ب- التقليل من التبشير العقائدي والأدلجة إثر المتغيرات الدولية المتسارعة والعاصفة على التيارات الفكرية من جهة، والتحولات المعلوماتية الافتراضية على عتبات النص وتعدد تقاناته من جهة أخرى، حتى صار النقد الاجتماعي ملازماً لضغوط العولمة وتداعياتها على الرؤى الفكرية بأبعادها الاجتماعية والسياسية والحضارية والأخلاقية.

ج- اعتمد في المنهج الاجتماعي على توحيد المصطلح للتمهيد والاتجاه الإيديولوجي والاتجاه البنيوي التكويني في الترجمة والتعريب والتأليف توضيحاً لهذا الاتجاه، المنهج، والنقد، وغير ذلك، بما يؤكد على المرجعية والقضايا النازمة للرؤى والمدلولات الاجتماعية.

المراجع:**1- الكتب بالعربية:**

- عباس، إبراهيم. *الرواية المغاربية، الجدلية التاريخية والواقع المعيش، دراسة في بنية المضمون*. الجزائر، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، 2002.
- الحاج حسن، حسين. *علم الاجتماع الأدبي*. بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1983.
- خليل، خليل أحمد. *نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية*. بيروت، نموذج لبنان، دار الحدائق، 1979.
- عثمان، عبد الفتاح. *الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع، دراسة تحليلية فنية*. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993.
- أبو هيف، عبد الله. «*النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد*». دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000.
- شكري، غالي. *سوسيولوجيا النقد العربي الحديث*. بيروت، دار الطليعة، 1981.
- عوض، لينة. *تجربة الطاهر وطار الروائية بين الإيديولوجيا وجماليات الرواية*. عمان، أمانة عمان الكبرى، 2004.
- خشفة، محمد نديم. *تأصيل النص، المنهج النبوي لدى لوسيان غولدمان*. حلب، مركز الإنماء الحضاري، 1997.
- الرويلي، ميجان. *البازغي، سعد. دليل الناقد الأدبي*. بيروت- الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط3، 2002.

2- الكتب المترجمة:

- بيبير زيماء: *النقد الاجتماعي، (ترجمة: عائدة لطفي، مراجعة: أمينة رشيد وسيد البحراوي)*، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
- جان ايف تاديه: *النقد الأدبي في القرن العشرين (ترجمة: قاسم المقداد)*، وزارة الثقافة، دمشق، 1993.
- رمان سلدن: *النظرية الأدبية المعاصرة (ترجمة: سعيد الغانمي)*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996.
- روبير اسكاربيت: *سوسيولوجيا الأدب (ترجمة: آمال انطوان عرموني)*، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الط2، 1983.
- مجموعة من الكتاب : *مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، (ترجمة: رضوان ظاظا)*، سلسلة عالم المعرفة 221، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أيار، 1997.
- مجموعة من الكتاب : *البيولوجي والاجتماعي في الإبداع الفني (ترجمة عن الإنجليزية: محمد سعيد مضية)*، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1983.
- لوسيان غولدمان: *مقدمات في سوسيولوجيا الرواية (ترجمة: بدر الدين عرودكي)*، دار الحوار، اللاذقية، 1993.